متولو رئاسة ديوان كاتب السر البحرية

تطورت وظيفة كاتب ديوان السر في أيام الدولة المملوكية الاولى والثانية في مصر، تبعاً للاجراءات السياسية والادارية التي شهدتها السلطنة البحرية والبرجية على يد سلاطينها المُصلحين، حتى أصبحت تحتل المرتبة الاولى بين أصحاب الوظائف الديوانية أيام السلطان المنصور قلاوون، الذي يقف وراء تحول كاتب الانشاء الى نظيره كاتب السر بحيث أرتفعت منزلتهِ على رتبة الوزير المسؤول الاداري الاول كلاسيكياً في الدولة، وفاق نفوذ متوليها نفوذ أكبر الامراء لدى الحضرة السلطانية، فكان يوصف بانه اعظم اهل الدولة رتبةً وصاحب الحل والعقد بها بعد السلطان نفسه.

ان الدولة التركية الاولى من حكم المماليك امتد حكمها لقرن وست وثلاثين عاماً تنحصر كرونولوجياً بين منتصف القرن السابع والعقد الثامن من القرن الثامن الهجري (648-784)،وقد باشر عشرة من كُتّاب السر رئاسة ديوان السر، كانوا جميعاً من أعلام الادباء مثلما يتضح من سيرة وعمل رجال الإدارة فيها متمثلة بكاتب ديوان الانشاء او كاتب ديوان السر في تسميتهِ الشائعة في ذلك العصر.

ويلاحظ بدايةً ان عهد المماليك البحرية شهد بداية لنهضة فكرية في صيغتها الادبية والادارية متمثلاً بظهور عدد من الكُتّاب والأدباء الذين وقفوا وراء صياغة وأبتكار الكثير من المصطلحات الأدبية - الإدارية التي سادت العصر، والتي مست الأساس لمسار وعمل كُتّاب ديوان الإنشاء فيما بعد، وهي الخاصة بكل نماذج أنواع الرسائل والمكاتبات التي تصدر عن كُتّاب السر. يضاف الى ذلك، ان كِتابة الإنشاء في عصر المماليك البحرية كانت قد أصبحت في

الشكل والمحتوى صناعة لها أصولها ومصطلحاتها واساليبها ومفرداتها المقّرة، ولاسيما بعد التقدم الذي أصابها أيام الأيوبيين، فكان لابد من توفر شرط الكفاءة الادبية فيمن يتولى رئاسة ديوان كاتب السر في أيام ذلك العصر، مقترناً بإثبات قدراتهِ الإدارية وولائه السياسي للسلطان، مع ان شرطي الكفاءة والقدرة، لم يعودا قائمين في عهد المماليك البرجية (الجراكسة) كما سيتضح لنا. لذا كان عدد كُتّاب رئاسة السر في عهد المماليك البحرية يعتبر قليلاً اذا ما قورن بعدد زملائهم في عصر المماليك الجراكسة. فما دام عنصر الكفاءة متوفراً في هؤلاء الكُتّاب فأنهم كانوا موضع التقدير من السلاطين، كما ان استقرارهم في وظائفهم جعلهم يتفرغون لأداء مهامهم على خير وجه، بل ويسهمون في تطوير وتفنين صناعة الإنشاء حسب مقتضيات ذلك العصر.

تولى رئاسة ديوان كاتب السر في هذا العصر عشرة من اعلام كُتّاب الادب المصريين والشاميين ينتسبون الى أسُر محترفة في الصناعة الادبية والانشائية، وذات قدرات ادارية كفوءة، تميزوا بخدمة سلاطين المماليك البحرية طوال مدة حكمهم بإداء حسن متميز، بحيث خلفوا من خلال عملهم الناجح في الديوان تركة مهمة من مصطلحات الانشاء، ونماذج الرسائل والمكاتبات التي أستقر عمل موظفيهم عليها في الديوان جيلاً بعد جيل حتى نهاية حكم سلاطين الدولة المملوكية الاولى (البحرية).

1- <u>ولاية فخر الدين ابن لقمان (648-678هـ/1250-1279م)</u>

كـــان الصـــاحب الـــوزير أبو اســـحق فخر الـــدين إبـــراهيم ابن لقمان[1]، اول العاملين في ديوان الانشاء بمصر عندما كـانت تجـري على الالسن بتسـمية ديـوان الانشـاء، وقد تـولى صـحابتهِ عهد آخر سـلاطين الأيوبـيين الصـالح نجم الـدين ايـوب بعد عـزل بهـاء الـدين زهير[1] عنها لخطأ فـني وقع للسـلطان حُملت مسـؤوليته وتبعيته ابن لقمان نفسه[2]، وهو بهذه الصفة يعد آخر من تولى المنصب في عهد الدولة الأيوبية الى وقت انتقـال الحـال من الأيوبـيين الى المماليك سنة 648هـ/1250م[3].

1)هو ابو العباس ابراهيم بن لقمان بن احمد بن محمد الشيباني الاسعردي ثم المصري الاصل ولد سنة 612هـ/1215م في مدينة المعدن من بلاد اسعرد بالقرب من نهر دجلة بديار بكر، اشتغل بالتدريس واخذ عنه الطلبة، وكان ناظماً مجيداً للشعر، فضلاً عن انه برع في صناعة الانشاء، يكتب بخط مليح منسوب. توفي عن عمر يناهز الواحد والثمانين سنة 693هـ/1293م في القاهرة ودفن بالقرافة. للمزيد عن سيرته انظر ابن الوردي، تتمة المختصر، جـ2، ص424؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ1، ص83؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص337؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص693؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص186؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص97؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص ص453، 489، 573، 666، 682؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ6، ص ص335 ،366 ،370 و جـ7، ص ص 111، 144، 146، 293، 333 و جـ8، ص ص50-51؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ2، ص45.

1 (?) هو بهاء الدين زهير بن محمد بن علي بن يحيى الشاعر الاديب، ولد سنة 581هـ/1185م في وادي نخلة بمكة، وكان صاحب ديوان الانشاء خلال حكم الملك الكامل محمد (616-635هـ/1219-1237م) ومن بعده لولده الملك الصالح نجم الدين ايوب (637-647هـ/1239-1249م). للمزيد عن سريته وعملهِ الإداري. انظر ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ4، ص ص155-156؛ ابو الفداء، المختصر، جـ3، ص197؛ الذهبي، سير اعلام النبلاء، جـ1، ص 480؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ2، ص108 وانظر ايضاً عباس القمي، الكنى والالقاب، جـ2، ص108؛ الزركلي، الاعلام، جـ3، ص52؛ الياس سركيس، معجم المطبوعات العربية، جـ1، ص596.

2 (?) عن هذه الحادثة انظر الصقاعي، تالي وفيات الاعيان، ص ص8-9؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ6، ص ص334-335؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ1، ص ص118-119.

3 (?) يعود سبب استخدام البهاء زهير لابن لقمان الى ما يرويه ابن الفرات من انه عندما كانت تاتي الرسائل من صاحب اسعرد بخط ابن لقمان الى

ظل فخر الدين ابن لقمان يباشر وظيفة صاحب ديوان الانشــاء في الدولة المملوكية (البحريــة) لمــدة تزيد عن ثلاثة عقــود،شــملت عهــــود ثمانية من ســــلاطين المماليك البحرية تمتد حــــتى ســــلطنة السلطان الســابع من سـلاطين البحرية ومن ملـوك الـترك في مصر المنصـــــور قلاوون ســـــنة 678هـ/1279م. فقد كتب اولاً للملك عز الــدين أيبك (648-655هــ / 1250-1257م)، أول ملــوك ســلاطين السلطنة لمدة سبع سـنين، ومن بعـده خـدم لسـنتين للمظفر سـيف الـــــدين قطز (657-658هـ/1258-1258م)، وبعد النصر الكبـــــير للماليك في عين جـالوت[1]، على المغـول في 25 رمضــان من سـنة 658هــ / 1258م انتقل للعمل تحت امـرة السـلطان الملك الظـاهر بيبرس (658 ـ 676هــ / 1258 ـ 1277م) وولديه كل من الملك الســعيد بركة خـــان (676هـــ / 1277م) واخيه الملك بـــدر الـــدين سلامش (678هـ / 1279م)، واخيراً كان وزيـراً للسـلطان المنصـور قلاوون وولــــده الاشـــــرف خليل (689-693هـ/129.-1292م) لأحد عشر سنة.

وفي هذه المدة ايضاً، تولى ابن لقمان نفســه، فضلا عن عملــهِ في الديوان، اعباء الوزارة في الديار المصرية لمــرتين: الاولى كــانت في اول عهد المنصـور قلاوون سـنة 679هــ / 1279م حيث باشـرها

الملك الكامل وتعرض على الصاحب بهاء الدين زهير كان يعجب بمهارته وخطه وأحضر الى خدمته وتحدث معه فاعجب بكلامهِ وسأله عن جامكتبه (اي راتبهُ) فقال:دون دينارين، فعرض عليه ان يسافر معه الى الديار المصرية فصحبه الى مصر فقام ابن لقمان ينوب عنه عند انتقاله مع السلطان في سفراتهِ وحروبه. انظر تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص186.

1 (?) موقع في شمال فلسطين بالقرب من بيسان، هزم عندها التتار (المغول) على يد السلطان المظفر قطز والقائد بيبرس في معركة حاسمة أوقفت تقدم التتار في المشرق الاسلامي نهائيا. أنظر عن هذه الواقعة أبو الفدا، المختصر، جـ3، ص216؛ أبن أيبك، كنز الدرر، جـ8، ص ص49-50؛ العيني، السيف المهند، ص ص50-51.

عوضــاً عن وزيــره المخلــوع برهــان الــدين الســنجاري (ت 686هـ/ 1287م)[1]، الذي كان قد اتهم هو وولـده شـمس الـدين عيسى من قبل قلاوون بإختلاس مال السـلطنة عن طريق اسـتغلال موقعهما[2]، والمـرة الثانية كـانت بعد وفـاة السـنجاري حين أعـاده قلاوون ايضـاً. وبمــوجب هــذا العمل المــزدوج ظل ابن لقمــان ينتقل بين الــوزارة والديوان حتى وفاته سـنة 693هـ/1293م فكـان اذا عـزل عن مهمة الوزارة يأخذ دواتهِ من مقر عملـهِ بقلعة الجبل ويعـود الى عملـهِ في ديـوان الانشـاء، على نحو ما وصف به هو شخصـياً بتبـديل في هـذه المناسبات بـالقول: **(جاءت فما أكـثرت وراحت فما أثـرت)**[3]، أي انه يقف في ديوان الانشاء بعد غياب، وكـان لم يتغـير عليه شـئ، خاصة وان الديوان حينئذ كان مردهُ الى شخص الوزير.

ان هذه السنوات من عمر السلطنة المملوكية شـهدت احـداث مهمة على الســاحة المصــرية - الشــامية بقــدر ما يتعلق الامر بصد هجمات المغول، وفرنج الساحل، فكان رئيس الـديوان الصـاحب ابن لقمــان بمثابة مركز الثقل في كل المخاطبــات والتواقيع والمناشــير التي تصدر من جهة السلطنة للاطراف ذات الشان من الامـراء بنيابة

---

1) هو الصاحب خضر بن الحسن بن علي السنجاري، تولى الحكم في مصر، وولي الوزارة، وباشر القضاء بعد قاضي القضاة تقي الدين بن بنت الاعز (ت 665هـ/1266م). للمزيد عن سيرته انظر ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص55؛ تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، جـ5، ص55؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص310؛ ابن حبيب، درة الاسلاك، ص89؛نفسه، تذكرة النبيه، جـ1، ص ص51، 109؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ2، ص125؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ5، ص395.

2) عمد السلطان الى سجنه ثم اخلى سبيله واطلاقهِ والزمه مدرسة اخيه قاضي القضاة بدر الدين بالقرافة الصغرى. انظر ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص56؛ ابن حبيب، تذكرة البنيه،جـ1، ص172؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص292؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ7، ص190.

3) ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص56؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص168 وانظر احمد احمد بدوي، الحياة الادبية، ص ص373-374.

السـلطنة بمسـاعدة عـدد من كُتّـاب الدست كمحي الـدين ابن عبد الظـاهر الـذي كـان ينـوب عن ابن لقمـان في مهمة الاشـراف على شؤون ديوان الاصل، الذي يجمع بين وظيفتي الوزارة والـديوان معـاً [1]، من تلك المكاتبات مبايعات السـلاطين والعهـود لبعضـهم البعض، لأحياء الخلافة العباسـية بشـخص المستنصر الجديد، الى الانتصـارات الشهيرة على الفرنج والمغول سواء في عين جالوت، او عكا وصـفد، والى مراسـلات السـلاطين الاعتيادية والمفاجئة الى نـواب السـلطنة في حالات التمرد والتحـدي للسـلطان الحـاكم. هـذه كلها وغيرها من المراسلات كـان ابن لقمـان له أسـهامات فيها على مسـتوى التحرير والاشـراف وغيرها[2].وبمـوجب مثل هـذه المهمـات الكبـيرة يقتضي على أبن لقمان ككاتب انشاء سر ان يكـون بصـحبة السـلطان دومـاً في الخروج والاياب من القاهرة واليهـا، محاربـاً اعـداء السـلطنة من الداخل والخارج معـاً، كما يقتضي ان يكـون له عـدد من المسـاعدين المتخصصـين من الادبـاء والكُتّـاب مثلما حظى بنو عبد الظـاهر، من أخص تلاميذه الذين استحوذوا على عمل الديوان لاحقـاً والـذي شـهد عهدهم بداية تحول اسم كاتب الانشاء الى كاتب السر.

---

1)ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص56؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ2، ص ص115-116؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ1، ص ص110-111.

2)مثل التقليد الرسمي الذي كتبهُ عن الظاهر ركن الدين بيبرس يعلن فيه تفويض الخليفة العباسي الجديد في مصر المستنصر بالله امور السلطنة والمسلمين الى الظاهر بيبرس، بحيث نصب لأبن لقمان منير جليل بثوب حرير اطلس أصفر، فصعد عليه الصاحب وقرأ التقليد للسلطان، وما كتبه هو ايضاً بشان تقليد الملك السعيد بركة خان بن بيبرس بولاية العهد، وبانه سلطان البلاد من بعده وذلك سنة667هـ/1268م. انظر النويري، نهاية الارب، جـ28، ص239؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ10، ص ص163-164؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص452؛ ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص ص111-112، 144؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ1، ص ص114-115.

2- بيت بنو عبد الظـــــاهر (678-691هـ/1279-1291م)

يعدُّ افراد هذا الـبيت من اشـهر كُتّـاب الانشـاء في تـاريخ مصر البحرية ومن اكـثرهم مسـاهمة وخدمة للسـلطنة المملوكية ولاسـيما سيد هـذه الاسـرة وزعيمها محي الـدين ابن عبد الظـاهر، ومن بعـده ولـده فتح الـدين الـذي إحتل منزلـةَ مهمة عند السـلطان والـتي لم يَرقى إليها كل من جاء بعـده من كُتّـاب سر الدولة المملوكية الاولى، لان عهده كان بداية تحول تسمية ديوان الانشاء الى ديوان السر.

وقد خدم هـذا الـبيت عـدد من سـلاطين المماليك البحرية مـدة خمسة وثلاثين عاماً، للمدة بين السنوات 658-693هـــ /1260-1292م وهي عهـود السـلاطين الظـاهر بيـبرس (658-676هــ / 1260-1277م)، وعهد ولديه بركة خـــان وســـلامش (676-678هـ/1277-1279م)، (678-679هـــ / 1279-1279م) على التـــوالي، ثم عهد السـلطان المنصـور قلاوون (679-689هــ / 1279-1290م) وولـده الاشرف خليل (689-693هـ/1290-1292م).

فلم يكن افــراد هــذا الــبيت بعيــدين عن عمل ديــوان الانشــاء وتشكيلاته الادارية، بل ان شخصيات هذه الاسرة المصـرية الشـهيرة كانوا اما من موظفي الديوان، أو من كُتّاب الانشـاء فيـه، فمنذ أواخر عهد الدولة الأيوبية كان الاب محي الدين[1] يعمل عند الأيوبــيين كأحد

1) هو ابو الفضل عبد الله بن رشيد الدين ابو محمد عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجده الجذامي المصري ولد سنة 260هـ/1223م بالقاهرة وتوفي سنة 692هـ/1292م عن عمر يناهز أثنين وسبعين عاماً، وكان جليل القدر، كبير المحل وحسن الكِتابة وغريز الفضل، جامع لانواع المحاسن العلمية والادبية. له نظم ونثر وارخ للسلاطين والف كِتاب اسماه

كُتّاب الدست في الديوان وكتب تاريخ بني أيوب الى وقت انتقال الحكم الى المماليك والتحاقهِ بإدارة السلطان الظاهر بيبرس، حيث حضر يمين الولاء الذي أقسمهُ السلطان للخليفة العباسي الحاكم بأمر الله سنة 661هـ/1262م حول توليه الخلافة خلفاً للمستنصر بالله، فهو الذي كتب خطبة الخليفة، وهو الذي حرر عقد الزواج بين الملك السعيد بن الظاهر بيبرس وبين أبنة قلاوون[1]، وفي ادارة السلطان المنصور قلاوون وولده الاشرف خليل كتب تقليد السلطنة بولاية العهد لولده الاول الملك الصالح علاء الدين علي (ت686هـ/1287م)[2]، وكتب بخطه تقليد ولاية العهد للملك الاشرف صلاح الدين خليل، الابن الثاني للمنصور قلاوون بعد موت ابنهِ الصالح علي[3].

ولا تدون المصادر الكثير عن حياة محي الدين، غير اننا نعرف انه كان ينتسب الى عائلة مصرية عريقة النسب، مشهورة بالأدب

(سيرة السلطان الظاهر بيبرس) و كِتاب آخر عن تاريخ المنصور قلاوون (تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور) وعن تاريخ الاشرف خليل بن قلاوون (الالطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الاشرفية) وله كِتاب (الروضة البهية في خطط المعزية القاهرة)، وله مقامه في مصر والنيل و كِتاب عن الحمام الزاجل بعنوان (تمائم الحمائم). للمزيد عن سيرته انظر ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص ص12-13؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ1، ص ص 451-460؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص164؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص331؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص97 و جـ10، ص339؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص ص331، 598، 779؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص ص293، 332، 338 وجـ8، ص ص 38-39؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ2، 245؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ5، ص419.

1 (?) ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص ص11-12؛ الصقاعي، تالي وفيات الاعيان، ص ص118-119؛ ابن حبيب، درة الاسلاك، ص115-116؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص ص787-788؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ2، ص ص224-225.

2 (?) ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص ص30-34، ص ص 288 – 289.

3 (?) المصدر نفسه ص246-251؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ10، ص 166؛ ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص320.

والترسل يعود اصلها الى جذام[4]. أما كِتاباتهِ الإنشائية فقد انتهج فيها منهج القاضي الفاضل المشـهور بألتزامه بالسـجع وأتبـاع اسـلوب المحسنات البديعة[2]. لكن مساهماتهِ الشخصية اشتهرت كذلك، التي اقترنت بأسلوبه الكُتّـابي، مثلاً هنـاك شـهادة لابن شـاكر الكتـبي عنه فيقـــول: **(وضع كثـــيراً من أصـــطلاحات الانشـــاء، ونظم الديوان، وبقيت نظمه واصـطلاحاته بها في مصر والشـام الى ان فتح العثمـانيون مصر سـنة 923هـ/1517م)**[3]، فهو من هذه الوجهة أشـتهر في انه آخر من بـرز في هـذا الفن على اهل زمانه، وسبق سائر أقرانه، فضلاً عن المصنفات التاريخية الـتي كتبها بأسم سلاطين الدولة المملوكية[4]، مع انه تقدم بشـكل متواضع على انه كاتب الانشاء في الديار المصرية.

عمل ابن عبد الظاهر نائباً لـديوان انشـاء الصـاحب فخر الـدين بن لقمان الذي كان يـترك له الاشـراف على شـؤون الـديوان عنـدما كان يجمع بين الوزارة وصحابة الديوان، طوال ايام السلطان الظاهر

1 (?) لا يعرف اهلها على وجه التحديد، فيقال انها قبيلة يمنية الاصل، ويقال انها مصرية هاجرت إلى اليمن إلا انها كانت خلقا من البدو وينزولون الصحاري فيما بين الحجاز والشام ومصر، وكان معاشهم من طرق التجارة المتصلة بجزيرة العرب والشام ومصر، ويرشدون القوافل ويقودونها ويتقاضون نظير ذلك مكوسا ورسوم. كانت صلاتهم بالاسلام أبعد ما تكون على الود والمحبة، فغزاهم النبي() مرتين، وكانت الغزوة الثاني على يد عمرو بن العاص، ولما تمت الغلبة للمسلمين على الروم اثبتت بنو جذام انهم حلفاء اوفياء للعرب وعاونوهم في فتح الشام. لامنس: مادة جذام، دائرة المعارف الاسلامية، م6، ص ص313-315.

2 (?) ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص ص12-13؛ ابن حبيب، درة الاسلاك، ص ص115-116؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ2، ص ص224-225؛ نفسه، النجوم الزاهرة، جـ8، ص38 وانظر احمد احمد بدوي، الحياة الادبية، ص ص376-377.

3 (?) فوات الوفيات، جـ1، ص ص212-213 وايضاً المقريزي، السلوك، جـ1، ص ص787-788؛ ابن تغري، النجوم الزاهرة، جـ8، ص35.

4 (?) وقد أخذ عن ابن عبد الظاهر كل من ارخ السلاطين المماليك البحرية بعده من امثال القلقشندي بكِتابه صبح الأعشى والمقريزي في خططه.

بيبرس، والسلطان المنصور قلاوون في السنة الاولى من حكمه مدة تقدر بإيام حين وقع اختيار السلطان على ولده فتح الدين[1] ليكون عوضاً عن الصاحب فخر الدين بن لقمان لرئاسة ديوان الانشاء. وقد بقي محي الدين في عملهِ بالديوان الى ان توفي سنة 692هـ/1292م [2].

أما ولده فتح الدين فهو كاتب السر او صاحب ديوان كاتب السر في الدولة المنصورية بعد أبن لقمان الانف الذكر، شغل رئاسة الديوان مدة اربعة عشر عاماً، طيلة عهد السلطان المنصور قلاوون وولده الاشرف خليل، ويصفه ابن كثير بانه كان ماهراً في الانشاء وساد في الديوان برأيه وعقلهِ وحسن سياسته حتى تقدم على والده في ادارة شؤون الديوان[3]، فكان والده من جملة الجماعة الذين يصرفهم بأمرهِ ونهيه على قول ابن تغري بردي[4]. ويبدو ان كفاءته الادارية والادبية معاً هي التي رشحته لتولي رئاسة الديوان بدلاً عن أبيه الذي لم يدخل النزاع مثل ما هو متوقع في منافسة الكُتّاب، مع ولده عاملاً فيه في الديوان كعضو شرف لا غير، ربما لسبب قاهر تفرغ من خلاله للتصنيف والتأليف وكِتابة سير سلاطين المماليك وتراجمهم.

---

1 (?) هو ابو عبد الله محمد بن المولى محي الدين ولد سنة 638هـ/1240م بالقاهرة، وكان متقناً لصناعة الانشاء، كاتباً مجيداً وأمنياً عفيفاً رئيساً معظماً في النفوس، فصيحاً حسن العبارة، متقناً في علوم كثيرة، ذا حرمة وافرة عند الملوك والاكابر وله نظم ونثر انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ3، ص366؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص156؛ نفسه، درة الاسلاك، ص112؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص151؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص35.

2 (?)ابن حبيب، تذكرة النبيه، ص164؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص38.

3 (?) البداية والنهاية، جـ13، ص334.

4 (?) النجوم الزاهرة، جـ8، ص35.

كان فتح الـدين يعد بحق اول من اسـتقل بشـؤون الـديوان عن الوزارة، وأول من سمي كـاتب السر بالصـفة الرسـمية، فمنذ توليتـهِ رئاسة ديوان الانشاء أخذ التعريف بالديوان بتسمية ديوان كاتب السر على اسم صاحبه فتح الدين، الـذي اصـبح كـاتب السـر، او كـاتم سر السـلطان الرسـمي في الدولة[1]، ومن ذلك لا نعـرف هل ان فتح الدين نفسه الذي اقترح التغيير بالتسمية ام سيده المنصـور قلاوون، وحتى قبل ذلك ايام السـلطان الراحل بيـبرس ربما بسـبب رغبة فتح الدين لمنافسة مرؤسـهِ السـابق الـوزير فخر الـدين ابن لقمـان،لنيل الحظوة والمكانة المتميزة عند السلطان قلاوون، على الرغم من ان فخر الـدين هو الـذي رشح فتح الـدين لتـولي رئاسة الـديوان من بعده[2]. ومهما يكن فـان ابن تغـري بـردي يجـزم بانه لا يعـرف احـداً قبل فتح الدين بن عبد الظاهر شرقاً ولا غرباً نعت بكاتب السـر،وان تاريخ ذلك كان بداية سلطنة قلاوون[3].

واجه فتح الـدين في رئاسة الـديوان منافسة شـديدة عند معارضة اولهم الوزير فخر الدين ابن لقمان عهد السـلطان المنصـور قلاوون بعد اعتراضـهِ على قـراءة كـاتب السر فتح الـدين للكتب

---

1 (?) ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص10؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص289؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص333 وللمزيد عن تحول الديوان بتسميته من ديوان الانشاء الى ديوان كاتب السر انظر الفصل الثاني ص ص 56-57.

2 (?) يقول ابن تغري بردي انه لما توزر فخر الدين ابن لقمان، قال له الملك المنصور: من يكون عوضك في الانشاء ؟ قال: فتح الدين ابن عبد الظاهر، فولي فتح الدين، وتمكن عند السلطان وحظي عنده النجوم الزاهرة، جـ7، ص333.

3 (?) النجوم الزاهرة، جـ7، ص ص333-334.

السلطانية، ولولا ان هـذه الواقعة خـرق للعـادة ما غضب ابن لقمـان واثار كراهية لمرشحه فتح الدين[1].

أما منافسةُ الثـاني في رئاسة الـديوان بشـخص وزيـره شـمس الـــدين ابن الســـلعوس (ت693هـ/1293م)[2]، فقد ظهر خلال عهد السـلطان الملك الاشـرف خليل بن قلاوون الـذي أعـاد اعـتراض ابن لقمان على عزل الـوزير عن المداولة في الاسـرار السـلطانية الـتي يجريها مع كاتب سـره[3].وقد كـانت هـذه المواقف وحـدها كافيـةً لان تزيد من مكانة فتح الدين عند اسياده طيلة مدة ولايته للديوان.

بقي فتح الدين صاحباً بالديوان كاتب السر يعاونه فيه عــدد من الكُتّاب، فضلاً عن والـده محي الـدين، القاضي تـاج الـدين ابن الاثـير وشـهاب الـدين ابو الثنـاء محمـود، في كِتابة الـدرج بالـديوان الى ان

---

1 (?) ان العادة قبل حصول التحول كانت تقضي بان لا يقرأ احد على السلطان كِتاباً بحضرة الوزير، وحصل ان دخل في بعض الايام ابن لقمان على السلطان، فأعطاه السلطان كِتاباً يقرأه، فلما دخل فتح الدين اخذ السلطان الكِتاب منه واعطاه لفتح وقال لفخر الدين [ابن لقمان] تاخر! فعظم ذلك على فخر الدين بن لقمان. انظر ابن عبد الظاهر، تشريف الايام، ص11؛ ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص334.

2 (?) هو شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الرجا التنوخي الشهير بأبن السلعوس الوزير للدولة الاشرفية توفي مقتولاً سنة 693هـ/1293م. عن سيمته انظر الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ4، ص86؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص338؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص173؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص166؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص53؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ2، ص145؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ5، ص424.

3 (?) طلب منه ابن السلعوس ان يقرأ عليه كل ما يكتبه، فقال هذا لا يمكن لان اسرار الملوك لايطلع عليها غيرهم وابصروا لكم غيري يكون معكم بهذه المكانة، فلما بلغ ذلك الاشرف اعجبه منه وازدادت عنده منزلته. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص331؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص334.

توفي بحياة والده سنة 691هـ/1291م[4]. وهكذا يكــون بيت أبن عبد الظاهر ممن توارث ولديه مسؤولية هذا الفن الرفيع.

3-بيت أثـير الـدين الحلـبي (رمضـان-شـوال سـنة 691هـ/1291م ورمضــان 709-15 محــرم 729هـ/ 1328م)

وهم ينتسبون الى كاتب الانشاء شـمس الـدين بن الاثـير(ت701هـ/1301م)[1] من كبار طبقة الرؤساء الشاميين ومن أصول حلبية، ويضم هذا البيت في كِتابة السر كل من القاضي تاج الدين بن الاثير، وولــده القاضي علاء الــدين بن الاثــير، اللــذان توليا الــديوان عهد السلطان الملك الاشرف خليل (689 ـ 693 هـ / 1290 ـ 1292 م)، والســـــلطان الناصر محمد قلاوون (709-741هــــــ / 1309-134.م)الســـــلطان التاسع من ســـــلاطين الدولة التركية الاولى (بسلطنته الثالثة)، مدة عشرين عاماً على الـرغم من ان افـراد هـذا الـبيت كـانوا قد خـدموا لمـدد غـير محـددة ضـمن مـوظفي الـديوان بدمشق، او بديوان مصر.

4 (?) توفي في دمشق عن عمر يناهز الاربعة وخمسون عاماً بعد مرض اصابهُ وهو بصحبة السلطان الاشرف فيها. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص332؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص156؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص53.

1 (?) هو المولى الرئيس الاصيل شرف الدين سعيد بن شمس الدين محمد ابن سعيد بن الاثير الحلبي، كان مشهوراً بالكِتابة والتقدم، فاضلاً حسن السيرة، كتب الانشاء بدمشق سنيناً عدة، وليس له صلة ببيت اثير الدين الجزري الذي ينتسب له مؤرخ العراق ابن الاثير الموصلي صاحب كِتاب الكامل في التاريخ عن سيرته انظر ابن حبيب، تذكره النبيه، جـ1، ص243؛ نفسه، درة الاسلاك، ص157؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ2، ص230؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص199.

تــولى القاضي تــاج الــدين بن الأثــير الحلــبي[1] كِتابة السر في الديار المصرية للاشرف خليل، وهو في دمشق خلفاً لفتح الــدين ابن عبد الظاهر بعد وفاتهِ في منتصف رمضــان ســنة 691هـ/1291م، إلا ان مـدة بقائه في رئاسة الـديوان لم تكن تزيد في مجملها عن شـهر واحد، في وقت وفاة الأخـير في شـوال من الســنة ذاتها[2]. ومع ذلك فان تاج الدين لم يكن جديداً على الديوان، حيث كان يعمل مع والده الرئيس شمس الدين بكِتابة درج ديوان دمشق لمدة طويلة تعود الى أيام عهد السلطان الظـاهر بيـبرس الـذي ما ان ظهر عليه اعجابه به وبنظمهِ حـتى طلبه للعمل في ديـوان الانشـاء بمصر ملتحقـاً بكُتّـاب الدست سنة 660هـ/1260م فكان يصاحب الســلطان في رحلاته مع كـاتب الإنشــاء فخر الــدين ابن لقمــان[3]، وظل يعمل بالــديوان عهد الســلطان المنصــور قلاوون، حــتى ان لــدينا قطعة من انشــائه كتبها بشان بشارة فتح طرابلس سنة 688هـ/1289م الى صاحب اليمن[4]

---

1 (?) هو تاج الدين ابو العباس احمد بن شرف الدين سعيد بن شمس الدين بن الاثير الحلبي التنوخي، ولم تذكر المصادر سنة ولادته ولكنه توفي سنة 691هـ/1291م. كان فريد زمانه في المرؤة والاخلاق والنزاهة، متقناً في صناعة الانشاء وله نظم ونثر. للمزيد عن سيرته انظر الصقاعي، تالي وفيات الاعيان، ص ص23-24؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص158؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص147؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ1، ص438؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص34؛ نفسه،المنهل الصافي، جـ1، ص ص483-484؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ2، ص147؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، جـ2، ص1165 وانظر ايضاً عباس القمي، الكنى والالقاب، جـ1، ص353.

2 (?) توفي تاج الدين في طريق عودته إلى القاهرة في مدينة غزة الواقعة الى جنوب من فلسطين تبعد عن ساحل البحر المتوسط ثلاثة كيلومترات وكانت محطة للقوافل التجارية بين مصر والشام،= =ومن آثارها الجامع العمري وضريح هاشم بن عبد مناف. انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، جـ2، ص993.

3 (?) ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص122؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص146.

4 (?) ابن أيبك الدوادار، كنز الدرر، جـ8، ص287؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص122؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7،ص ص322-323.

الرسولي الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن رسول (ت 694هـ / 1294م) [1].

دعت وفاة كاتب السر القاضي تاج الدين في طريق عودته من الشام مع السلطان الاشرف خليل الى الديار المصرية سـنة 691هـ/ 1291م، الى تولية ولده الرئيس عمـاد الـدين اسـماعيل (ت699هـ/ 1299م)[2]، الذي كان احد مساعدي والده الراحل ومنشئي السلطنة في الديوان لحين تقرير اختيار خلفاً له.

أما رئاسة كِتابة السر الـتي تولاها القاضي علاء الـدين من بيت ابن الاثير فسترد لاحقاً ضمن ادارة بنو فضل الله ايام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون.

6،5،4- بيت بنو فضل الله العمري (691-709هـــ / 1291- 1309م) و(729-738هـ /1328 - 1337م) و (738-769هـ/1337-1367م) و (796-96هــــــ / 1367-1393م)

تعدّ أسرة فضل الله العمري من اهم الاسر التي شـغلت مقعد ديوان كـاتب السر في الـديار المصـرية، الـذي ينتسب على ما يقـال الى الخليفة القريشي الراشـدي الفـاروق عمر بن الخطـاب ()، وقد عرف افراده بتولي رئاسة الـديوان لسـنين طويلة شـملت سـلطنات

1 (?) هو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عمر ابن علي بن رسول، امتدت سنين حكمه حتى توفي عن عمر يناهز سبعة واربعين عاما. أنظر ابن حبيب درة الاسلاك، ص124؛ النويري، نهاية الارب، جـ29، ص83؛ أبن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ8، ص202؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ8، ص71.

2 (?) هو عماد الدين ابو الفداء اسماعيل ابن المولى تاج الدين الذي توفي في وقعة حمص سنة 699هـ/1299م، عمل في ديوان الانشاء بالشام ثم بمصر مع والده، وكان كاتباً مجيداً ينشئ الرسائل والخطب، وله نظم شعرية. عن سيرته انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، جـ1، ص230؛ نفسه، درة الاسلاك، ص 149؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص ص34،190؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ1، ص175.

كل من الملك الاشـــرف خليل واخيه الاصـــغر الناصر محمد والملك العـــادل كتبغا (694-696هـ/1294-1296م)، ثم المنصـــور حســـام الـــدين لاجين (696-698هـــ / 1296-1298م)، والمظفر بيـــبرس الجاشـــنكير (708-709هـــ / 1308-1309م)، وقد تـــولى رئاسة الـديوان كل من القاضي شـرف الـدين عبد الوهـاب ابن فضل الله العمـري اول أبنـاء هـذه الاسـرة واشـهر افرادهـا، تولاها في الـديار المصـرية للمـدة بين 699-717هـ/1299-1317م، وكـان واحـداً من الشخصـيات البـارزة ايـام حكم السـلطان الناصر محمد بن قلاوون، الـذي أصـبح هو أحد اشـهر سـلاطين المماليك البحرية المخضـرمين واطول عهود سلاطينها حكمـاً، اما الابن الثـاني للاسـرة فهو القاضي محي الـدين بن فضل الله الـذي تـرأس الـديوان للمـدة بين 729-738هـ /1328- 1377م، ثم تولى الديوان ولـده القاضي / الـرئيس علاء الـدين علي بين 738-743هـ / 1337-1342م، واخـيراً حفيـده بدر الدين محمد الذي تولاها بقية ايام اخر سلاطين المماليك البحرية الصـالح حـاجي بن شـعبان (778-784هـــ / 1376-1381م) وبداية عهد جديد لســـلاطين المماليك البرجية لحين وفاته ســـنة 796هـ/ 1393م.

وقع أختيـار السـلطان الاشـرف خليل بن قلاوون على القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله[1]، بعد الفراغ المفاجئ الـذي

(1)هو شرف الدين ابو محمد عبد الوهاب بن جمال الدين فضل الله القرشي العدوي، العمري ولد سنة 623هـ/1226م وتوفي سنة 717هـ/1317م وهو جالس ينفذ بريد الى بعض نواحي الشام، كان كاتباً واديباً كاملاً في فنه، عاشر الفضلاء من الناس، ولما دخل الى مقر الديوان= =انطوى على نفسه وأختصر في ملبسه وعزل نفسه عن الناس. للمزيد عن سيرته انظر الصقاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، ص23؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ2، ص ص221-223؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص97-98؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص240؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ1، ص ص 283-284.

تركه رحيل ابن الاثير، ويقع السبب في اختياره لهذا المنصب على ما اورده ابن شاكر الكتبي[1] وابن حجر العسقلاني[2] الى شهرته الادبية التي فاقت الأقران في صناعة الترسل،وانه كان كاملاً في فنه، ولم يكتب أحد مثله عند الملوك الاتراك، لذلك نال احترام وتعظيم السلاطين الذين أشتغل معهم أبن فضل الله جميعاً، حتى ان السلطان المملوكي الاشرف خليل منعهُ من شدة فضلهِ ان يقف لأي أحد كان مهما كانت رتبتهُ في اثناء جلوسهِ في حضرتهِ [اي حضرة السلطان] وهو يدلل على ما وصل اليه ابن فضل الله من مكانة متميزة ومنزلة مرموقة ومهمة عند سلطان المماليك بمصر وقتذاك.

ظل ابن فضل الله مسؤولاً عن مهام كِتابة السر بقية سلطنة الاشرف خليل اي منذ سنة 691-693هـ/1291-1292م، إلا انه باشرها ايضاً ايام اخيه السلطان الناصر محمد في سلطنتهِ الاولى (693-694هـ/1292-1294م)، والايام التي تلتها خلال حكم مغتصب السلطنة العادل كتبغا (694-696هـ / 1294-1296م)، وللمنصور حسام الدين لاجين (696-698هـ/1296-1298م)،ثم الايام التي تلتها خلال عودة الناصر محمد في سلطنتهِ الثانية (698-708هـ / 1298-1308م)، ومجدداً ايام المغتصب الجديد المظفر بيبرس الجاشنكير (708-709هـ / 1308-1309م)، وبقية سنوات من سلطنة الناصر محمد في سلطنتهِ الثالثة (709-741هـ / 1309-1340م) بعد عودتهِ من منفاه في الكرك الى الديار المصرية[3].

1) فوات الوفيات، جـ2، ص121.
2) الدرر الكامنة، جـ3، ص156.
3) الكتبي، فوات الوفيات، جـ2، ص47؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص 85؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ8، ص41 وما يليها؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ6، ص46.

ان هذه التغـيرات السياسـية-العسـكرية الـتي مـرت بالسـلطنة المملوكية أيام ابن فضل الله وما صـاحبها من عـزل وتعـيين لإدارات جديدة ضمن مسـؤولية كتابة السر تثـير سـؤالاً أساسـياً بشـان عمل واداء هـذا الـرئيس العمـري النسب مفـاده كيف اسـتطاع في ضـوء التغيرات المتعاقبة في السلطنة ان يحتفظ بهذه الوظيفة طـوال تلك المدة الانتقالية الـتي ما كـان يقيم بها في قلعة الجبل سـلطان حـتى يخلعه مملوك اخر بلا توقف بعد نجاح تحديه في طلب السلطنة.

ان السر في نجاح ابن فضل الله في المحافظة على وظيفتـهِ في الديوان طوال هذا الانتقـال في رياسة السـلطنة تكمن لربما في كفاءته وإخلاصه وحسن أداءه لوظيفته في احتفاظه المســــــــتمر بعلاقات شخصية جيدة بالامراء والنـواب المتنفـذين الـذين عاصـرهم منذ بدايات عهد السلطان الناصر محمد، من أمثال الامير زين الــدين كتبغا، والامير حسام الدين لاجين، وغيرهما، الذين انشغلوا فيما بينهم في صراعاتهم الداخلية حول السـلطنة مما سـمح له بالاسـتمرار في العمل بالديوان في مصـر،على الـرغم من ان المصـادر لا تشـير الى ذلك صـراحةً، فضـلاً عن انشـغال هـؤلاء الأمـراء كـذلك بحماية مصر والشام ضد هجمات وغزوات التتـار بقيـادة سـلطانهم القـان محمـود غـازان حيث تعرضت الى ثلاث محـاولات ضـاربة، ويشـير ابن عربشا هوابن تغـري بـردي الى بعض من تلك الرسـائل والكُتب الـتي كـانت متبادل فيما بينهم من أنشاء ابن فضل الله[1].

كانت سياسة ابن فضل الله في مسألة صراع الامراء المماليك على السلطنة الوقوف على الحياد اولاً ثم تأييد المنتصر ثانيـاً وهو ما كلفه كِتابة السر في الـديار المصـرية بعد عـودة الناصر محمد الثالثة

1) عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحق احمد فايزالحمصي، ط1 (القاهرة: مط مؤسسة الرسالة، 1986 م)؛ النجوم الزاهرة، جـ8، ص136.

سـنة 709هـ/1309م الى السـلطنة من منفـاه في الكـرك حيث تم نقل ابن فضل الله الى دمشق عوضاً عن أخيه الآتي الذكر[2]، وتقرر عوضه في الكِتابة بالـــديار المصـــرية منافسه علاء الـــدين ابن الاثير[3]الـذي صـحب الناصر محمد الى الكـرك لما خلع عن السـلطنة في المرة الثانية سنة 708هـ/1308، وكان السلطان في الكـرك قد وعد الرئيس علاء الدين ابن الأثـير بكِتابة السر بمصر إذا ما عـاد الى عرش السـلطنة فيها، والـذي نفذ وعـده في السـنة التالية مقـراً ابن الأثير في رياسة كِتابة السر بمصر[1].

ويلاحظ ان علاء الـدين ابن الاثـير قد بلغ عند الناصر محمد في منزلة لم يبلغهُ غيره من رؤساء الكُتّـاب حـتى كـان الناصر يـأمره ان يكتب الى نوابه في الشـــام بأشـــياء يـــأمرهم بها عن نفسه[2]. فمن خصوصـيات ولاية علاء الـدين ابن الاثـير انه لما أخُتـير لوظيفة كُتّابة السر لـــدى الســـلطان الناصر محمد ســـنة 709هـ/1309م بـــرزت مواهبه وفاق أسـلافه من افـراد أسـرته في صـناعة الترسـل،فكـانت بتقـدير ابو الفـدا وابن الـوردي يمتلك القـدرة على أصـلاح اللفظة وإبرازها من صورة إلى صـورة، والدقة البالغة في مباشـرتهِ لشـؤون

2) بقي يباشر كِتابة السر في دمشق الى ان توفي سنة 717هـ/1317م عن عمر يناهز الخامسة والتسعون ودفن بسفح قاسيون. انظر الصقاعي، تالي وفيات الاعيان، ص717؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ2، ص47؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ14، ص46؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص 240؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ6، ص85.

3) هو علاء الدين ابو الحسن علي ابن القاضي تاج الدين احمد ابن سعيد المعروف بأبن الاثير، من بيت بني الاثير الحلبي الذين تولوا الكِتابة في دوواين الانشاء في الشام ومصر، وكان ذا صفات= =جليلة وحرمة وافرة وجاه عريض يضرب به المثل في الحشمة والرياسة. عن سيرته انظر ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص149؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص283.

1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص55.

2) أنظر كل من المختصر، جـ4، ص200؛ وكذلك تاريخ ابن الوردي، جـ2، ص 413؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ3، ص265.

الـــديوان لدرجة انه لم يكن يخـــرج من الـــديوان كِتـــاب إلا بعد إن يتأمله،ويزيد فيه بقلمه شيئاً في معظم الاحيان[3]**.** وقد استمر يــؤدي أعمال هذه الوظيفة إلى ان أصيب بمرض الفالج آخر عمــره فأعفــاه الناصر محمد من منصبه في الخامس عشر من محرم ســنة 729هـ/ 1328م بعد ان شـغل الوظيفة مـدة عشـرون عامـاً، وقد تـوفي بعد عام من ذلك في 730هـ/1329م[4].

أختــار الســلطان الناصر محمد القاضي محي الــدين ابن فضل الله ليكون خلفا لعلاء الدين ابن الاثــير بكِتابة السر بمصــر، وهو الابن الثــاني من بــني فضل الله العمــري، الــذي تنقل في حياته الوظيفية قبل ان يتســلم رئاسة الــديوان ككــاتب في ديــوان الانشــاء بدمشق وحمص والقاهرة حتى أستقر به الامر بصحابة ديوان الانشاء بدمشق خلفاً لاخيه شرف الدين عبد الوهاب الذي كُلف بتولي صـحابة ديــوان كاتب السر في مصر سنة 691هـ / 1291م. ثم خرجت من يــدهِ بعد نقل السلطان الناصر محمد شرف الــدين عبد الوهــاب للمــرة الثانية لولاية الــديوان بدمشق وعمل محي الــدين كاتبــاً فيــه، الى ان أعيد لوظيفته ثانية بعد وفــاة اخيه شــرف الــدين المــار الــذكر وذلك بنقله لرئاسة ديــون كــاتب السر في الــديار المصــرية مكلفــاً ايــاه بقــراءة البريد على الســـلطان الناصر ســـنة 729هـ/1328م[1]، حيث ظل يباشر هــذه المهمة الى وقت قــرار الســلطان محمد ســنة 732هــ / 1331م عن عزمــــهِ في اداء فريضة الحج بصــــحبة أمرائه بما فيهم كاتب سره محي الدين ابن فضل الــه، الــذي أعتــذر عنــدها عن تلبية

3) ابو الفداء، المختصر، جـ4، ص200؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، جـ2، ص413.
4) ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص149؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص283.
1) الكتبي، فوات الوفيات، جـ2، ص200؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص157؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ1، ص ص496-498؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ3، ص99.

الدعوة بسبب كبر سنه وعدم تحملهِ مشاق الرحلة، مما اضطره الى تبديله بالقاضي شرف الـدين ابو بكـر(ت744هـ/1343م) [2] صـاحب ديـوان دمشـق، ونقل محي الـدين ابن فضل الله الى عملـهِ السـابق في دمشق[3]، وظل هذا الامر قائماً حتى وقت عـودة السـلطان الى القـاهرة عنـدما تبـادل كاتبا السر مكانهما مجـدداً بعد طلب شـرف الدين لهذه العودة[4].

وخلال الولاية الثانية لمحي الــدين ابن فضل الله العمــري في كِتابة السر تمتع فيها هــذا العمــري بمكانة متمــيزة عند الســلطان الناصر محمد ولم يتغـير عليه حـتى انه لما ثقل مرضـهُ اسـتأذنه في العودة الى دمشق ليموت فيها[5]، فـأذن له الناصر بـالعودة مع بقائه بمهمة الاشــــراف على كِتابة السر بمصر مُصــــدراً له توقيع بقطع الثلين[1]، وفوض أمر الـديوان في اثنـاء رحيله الى ابنه الاوسط علاء

---

2) هو القاضي شرف الدين ابو بكر بن شمس الدين محمد بن محمد بن محمود بن سليمان بن فهد الحلبي والدمشقي، كان فاضلاً بارعاً في صناعة الانشاء وله نظم ونثر وشعر، وهو من اسرة تعاطت الانشاء في ديوان دمشق فكان والده شمس الدين محمد (ت727هـ/1324م)، وجده شهاب الدين ابو الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبي(ت725هـ/1324م)، قد عملا في ديوان الانشاء بدمشق فترة طويلة من عمر سلطنة المماليك البحرية. للمزيد عن هذه الاسرة انظر الحلبي، حسن التوسل، ص ص2-10؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ2، ص ص286-287؛ ابن حجر، الدرر، جـ1، ص ص496-498؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ9، ص ص264-265، 268 و جـ10، ص106.

3) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، جـ2، ص425؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص157؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ2، ص424.

4) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، جـ2، ص425؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص157.

5) ابو الفداء، المختصر، جـ4، ص122؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص ص98-99؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ5، ص ص199-200

1) جرت العادة على ان يصدر تعيين كاتب السر بتوقيع شريف بقطع نصف بقلم الثلث وبهذا يتساوى مع كاتب السر بدمشق وقضاة القضاة الاربعة بمصر والشام وناظر الحرمين الشريفين. انظر القلقشندي، صبح الاعشى، جـ11، ص27.

الـدين علي، إلا ان المنية عاجلته قبل سـفره بالقـاهرة سـنة 738هـ/1337م[2].

كــان محي الــدين ابن فضل الله إداريا ناجحــاً وذلك في جمع عنصرين مهمين للنجـاح الإداري، هما الكفـاءة الأدبية والخـبرة التامة في شؤون الديوان كاتباً وولايـةً، وأما مسـاعدوه في الـديوان فكـانوا أولاده الثلاثة كل من شـهاب الـدين احمد بن فضل اللـه، وأخويه بـدر الدين محمد وعلاء الدين علي.

كــان الأول شــهاب الــدين احمد[3] بمثابة نــائب لأبيه في كِتابة السر بالـديار المصـرية حـتى وقت أسـتقلالهِ بالولايـة، ومع ذلك كـان يقـوم في بعض الاحيـان بقـراءة البريد على السـلطان وينفذ مهامـهِ، وارتبط عمل الابن الاوسط في الــديوان بمصر الى ان تــرقى لكِتابة السر بدمشق سـنة 743هـ/1342م[4]، فيما ورث الابن الثـالث علاء الدين على والده في كِتابة السر بالديار المصرية بعد وفاتهِ.

---

2) لقد نقل جثمانه الى دمشق ليدفن فيها عن عمر يناهز التسعين. انظر ابو الفداء، المختصر، جـ4، ص122؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ13، ص183؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ5، صص199-200؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ1، ص171.

3) هو القاضي الامام البارع الكاتب المؤرخ شهاب الدين ابو العباس احمد ابن القاضي محي الدين يحيى بن فضل الله بن الجلبي بن دعجان القرشي العدوي العمري الدمشقي الشافعي ولد سنة 700هـ/1300م وقيل سنة 697هـ/1297م، كان اماماً بارعاً وكاتباً فقيهاً نظم الكثير من القصائد والاراجيز والمقطعات وانشأ الكثير من التقاليد والمناشير والتواقيع وله مصنفات كثيرة منها تاريخه (مسالك الابصار في ممالك الامصار) وكِتاب (فواصل السمر في فضائل آل عمر) و(الدعوة المستجابة) و (صبابة المشتاق) بمجلد واحد. للمزيد عن سيرته انظر الكتبي، فوات الوفيات، جـ5، ص12؛ ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص ص234-235؛ ابي العباس احمد بن محمد المكناسي الشهير بأبن القاضي، ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال، تحق محمد الاحمدي ابو النور، ط 1(تونس: مط دار النصر، 1970م)، جـ1، ص ص18-19.

4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص80.

يوصف شــهاب الــدين ابن فضل العمــري بانه كــان متوقد الذكاء،يتمتع بذاكرة قوية واقتدار ظاهر على النظم والنـثر،وله المـام كامل في شـتى الـوان المعرفة الادبية والادارية حـتى انه فـاق جميع افراد اسرتهِ في صناعة الانشاء[1]، بحيث تحققت له شهرة لم يتحقق لاي احد من افراد هـذه الاسـرة العمرية الشـهيرة لا من قبل او فيما بعد فهو بشهادة مؤرخ العصر الصـفدي: **(الامام الفاضـل، البليغ المفـوه، الحافـظ، حجة الكُتّـاب، امـام اهل الزمـان، احد رجـالات الزمـان كِتابة وترسـلاً، وتوسـلاً الى غايـات المعالي)،** وهو الذي **(يتدفق بحـره بـالجواهر كلامـاً، ويتـألق انشاؤه بـالبوارق المسـتعره نظامـاً ويقطر كلامه فصـاحة وبلاغـة.... ويكتب من رأس قلمه بـديهاً ما تعجز تـروي القاضي الفاضل ان يدانيه تشبيهاً)،** وهو الذي **(دبر الممالك تنفيذاً ورأيـاً، ووصل الارزاق بقلمـه، ورتب تواقيعـهُ وهي سـجلات لحُكمه وحكمه لا أرى [اي الصـفدي] ان اسم الكاتب بصـدق على غـيره ولا يطلق على سـواه...)**[2]. بهـذا يكون شهاب الدين ابن فضل الله العمري حقيقةً حجة الكُتّاب، وامام أهل زمانه في الكِتابة والترسـل، فضـلاً عن كفاءته الادبية ومعرفته بـتراجم اهل عصـره وبتـواريخ ملـوكهم، ولما يعـرف عنه في تملكـهِ معرفة واسـعة في الممالك والمسـالك وخطـوط الاقـاليم والبلـدان وخواصـهما، ويشـهد في ذلك مؤلفه الموسـوم (مسـالك الابصـار في ممالك الامصـار) الـذي صـار منهلاً لكل من جـاء بعـده من الكُتّـاب

1) الكتبي، فوات الوفيات، جـ5، ص12؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص235؛ ابن القاضي، درة الحجال، جـ1، ص19.
2) الوافي بالوفيات، جـ5، ص ص12-14 وايضاً ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ3، ص94؛ ابن القاضي، درة الحجال، جـ1، ص ص18-19.

والمـؤرخين، وكـذلك مصـنفه (التعريف بالمصـطلح الشـريف)، الـذي خصه لصناعة الانشاء ليضمن فيه اصول وقواعد ومصـطلحات الكِتابة الإنشائية حتى أصبح منذ أجازته المعـول عليه للعـاملين بالـديوان من الكُتّاب حتى نهاية عهد الدولة المملوكية سنة 923هـ / 1517م.

على الرغم من هذه المكانة الأدبية والمعرفة الإدارية فقد كــان منافسوه يأخذون عليه ما كان ينقصهُ في نظرهم منها ادراك لطبــائع الملك والملـوك، الامرالـذي ادى به في أواخر سـنة 738هـ/1337م الى غضب الســــلطان الناصر محمد عليه[1]،وحرمانه من خلافة ابيه في كِتابة سر مصر، بما في ذلك اتهامهِ من قبل مخالفهِ بتزوير توقيع السلطان اثناء مباشرتهِ شؤون الديوان[2]، الامر الذي دعا الى حبسه مـدة، غـير انه عقب مضي سـنة على عقوبتـهِ افـرج عنه السـلطان الناصر محمد شخصــياً، والــذي اســتدعاه وأســتخلفه مجــدداً على المناصحة له وعينهُ في كِتابة السر بدمشق ســنة 741هـ/1340م[3]. مع ان الاحـوال تقلبت به مـرة اخـرى، وتعـرض لنقمة الناصر للمـرة الثالثة بسـبب وشـاية الاعـداء من منافسـيه، ثم شـفع له اخـاه علاء

1) حصل ذلك أثناء مراجعته في تعيين علم الدين قطب في ديوان كِتابة السر بدمشق وكان علم الدين اسلمياً. الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ3، ص 87؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ1، ص128.

2) في سنة 736هـ/1335م رفع التاج كاتب الامير بكتوب التاج محي الدين ابن فضل الله كاتب السر وولده شهاب الدين احمد بورقه قرأها السلطان تتضمن انهما عزلاه بغير علم السلطان وعند حضوره بين يدي السلطان عرف ان هذا كان يكتب الانشاء بغزة فكتب تواقيع لغيره بذلك بمقتضى قصة مشمولة بالخط الشريف وأحضر القصة للسلطان وأخرج الرجل ووجد الامير النشو الدوادار (ت740هـ/ 1399م) طريقاً للوقوع في ابن فضل الله فتسلط عليه بالكلام. انظر المقريزي، السلوك، جـ2، ص ص392-393.

3) ابن الوردي، تتمة المختصر، ص ص502-503؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ1، ص ص7-9؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ1، ص202.

الدين علي كاتب السر بالديار المصرية، فسمح له عندئذ بالعودة الى دمشق دون ان يعهد اليه بأية وظيفة جديدة في الديوان[4].

اما القاضي علاء الـــدين علي بن محي الـــدين ابن فضل الله العمري فقد تـولى في كِتابة السر بالـديار المصـرية بعد وفـاة والـده محي الدين ابن فضل سنة 738هــ/ 1337م،الـذي سـبق وان فـوض اليه السلطان الناصر محمد شؤون الديوان لما عزم ابوه محي الدين على الرحيل الى دمشق في ســنة خدمته الاخــيرة، وبهــذه الخلفية اكتسب القاضي علاء الدين خبرة كبيرة بصناعة الانشــاء من خلال ما حصل عليه من تـدريب وأحتكـاك بوالـده واخيـه، فضـلاً عن أشـتغاله معهم في الديوان مباشرةً، سـواء بصـحبة نيابة السـلطنة في دمشق او لدن السلطان في القاهرة[1].

باشر علاء الـــدين ابن فضل الله العمـــري العمل في الـــديوان بمصر ما يقرب من ثلاثة عقـود خـدم فيها احد عشر سـلطاناً وملكـاً مملوكاً: اولهم واشهرهم السـلطان الناصر محمد في أواخر سـلطنتهِ (709-741هـ/1309ـ- 1340م)، ثم في خدمة اول اولاده السـلطان الملك المنصور سـيف الـدين ابو بكر (741-742هـ/1340-1341م)، وأخويه كل من الملك الاشـــرف علاء الـــدين كجـــك، والملك الناصر شهاب الدين احمد على التـوالي، بعد خلع اخيه كجك بين السـنوات (742-743هـ/1341-1342م)، واخـيراً ايـام الملك الناصر احمد (17

---

4) رحل الى دمشق وبقي فيها وتفرغ للتأليف والتصنيف الى ان توفي سنة 749هـ/1348م بمرض الطاعون. انظر ابن الوردي، تتمة المختصر، ص502-503؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ1، ص ص12-15؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ1، ص ص331-333؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص 234؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ1، ص202؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ 6، ص160؛ ابن القاضي، درة الجمال، جـ1، ص19.

1) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص99؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص ص339-340 و جـ10، ص235.

ذي الحجة 742-21 محـــــــرم 743هـ/1342-1342م). ولما توجه الناصر احمد الى الكـــرك ليقيم بها توجه علاء الـــدين العمـــري معه وأقام عنده مدة، وفي هذا المحتوى، يذكر ابن تغري بردي كيف كـان كـاتب السر القاضي علاء الـدين يـدير وظيفتـهِ في الدست الشـريف بالكرك، فيقول انه كان يباشـرها من خلال (كـاتب كـركي يعرفه اولاً بما يريـــده الســـلطان، فيكتب كـــاتب السر علاء الـــدين ذلك ويناوله للكاتب الكـركي حـتى يأخذ عليه علامة السـلطان ويبعثه حيث يرسم به)[2].ونظراً للمنزلة التي حظي بها علاء الدين علي عند اولاد الناصر محمد فان الملك الصالح اسـماعيل احد الاولاد (743-746هـ/1342-1345م) الذي خلف أخاه الناصر احمد في السلطنة اكتفى بان اناب ولده بدر الدين محمد في القيام بشؤون الـديوان بمصر[3]. ولمّـا عـاد علاء الدين علي من الكرك قام بإعادة الصالح اسـماعيل الى منصـبه في كِتابة السر بالـديار المصـرية[4]، وتكـرر ذلك ايـام سـلطنة اخيه الملك الكامل شعبان (ربيع الاخر 746 جمــادى الاخر 747هـ/1345-1346م)، والملك المظفر حــاجي (جمــادى الاخر 747 - رمضــان 748هـ/1346-1347م)، والملك الناصر حسن (رمضان 748-754هـ / 1347-1353م)، وظل يتــابع عمله ايــام ســلطنة الملك المنصــور محمد بن حاجي (9جمـادى الاخـره 761-764هــ / 1359-1362م)، والملك الاشرف زين الدين شعبان بن حسين (15 شـعبان 764- ذي

2) النجوم الزاهرة، جـ10، ص67-68.
3) المصدر نفسه، جـ11، ص80
4) قدم القاضي علاء الدين علي ابن فضل كاتب السر وجمال الكفاءة، ناظر الجيش والخاص من الكرك الى الديار المصرية مفارقين الناصر احمد بحيلة دبرها جمال الدين الكفاءة، ان الناصر يريد قتلهم خوفاً من حضورهم الى مصر ونقلهم لما هو عليه من سوء السيرة، حيث بذل جمال =
= الكفاءة ليوسف البازدار مالا جزيلاً حتى مكنهم من الخروج، فأقبل عليهم الامراء والسلطان، وخلع عليهم بأستمرارهم على وظائفهم. المصدر نفسه، جـ10، ص ص80-81

القعدة 778هــ / 1362-1376م)، من اولاد الناصر محمد بن قلاوون كذلك، الى ان توفي سنة 769هـ / 1367م[1].

ويلاحظ على هذا الوضع المتغير للسلطنة تـدخل امـراء الشـام ونواب السلطنة بمصر في مسـتقبل السـلطان ومقعد السـلطنة في القـاهرة الـذي يـرقى ويعـزل عن السـلطنة بسـرعة متناهيـة، بحيث امست ظـاهرة سياسـية - عسـكرية قائمة في خصوصـيات النصف الثاني من القرن الثـامن الهجـري / الرابع عشر الميلادي، ويرجع الى جملة اسـباب من اهمها رغبة الامـراء الصـغار في الارتقـاء السـريع بمراكز السـلطنة ونياباتهـا، فضـلاً عن الرغبة الجانحة في زيـادات اقطاعاتهم، وهو مـاانعكس كثـيراً على موقع واداء كُتّـاب السر لهـذه المدة، فعلاء الـدين علي ابن فضل الله العمـري حظي بمكانة كبـيرة عند معظم امـــراء ونـــواب الســـلطنة مكنته من المحافظة على وظيفتهِ[اي كِتابة السر] طوال تلك الاضـطرابات السياسـية والادارية الـتي مـرت في عمل القاضي علاء الـدين العمـري في كِتابة السر بالـديار المصـرية والكـرك خلال حكم اعـداد محـددة من السـلطنات المذكورة سابقاً، بما في ذلك الفتن والحوادث الخطيرة التي صاحبت عمل كاتب السر علاء الـدين، فمنها بقـاءه في الكـرك وعودتـهِ مـرة ثانية الى مصر بعد حيلة دبرها له نـــاظر الجيش جمـــال الـــدين الكفــاءة(ت745هـ/1344م)[2] بعــدما بلغه عن الناصر انه يريد قتله

1 (1) ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ3، ص138؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص102؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ2، ص456.

2 (2) هو إبراهيم القاضي جمال الدين من النصارى الذين دخلوا الإسلام، عمل مستوفي الدولة بوساطة خاله القاضي شرف الدين النشو (ت740هـ/ 1399م) الذي كان ناظرا للجيش في دولـة= =الناصر محمد وبقي على هذه الحالة إلا ان أخذه الناصر احمد إلى الكرك سنة 743هـ/ 1342م وبعد أن عاد تسلم وظيفة نظر الجيش والخاص بوساطة القاضي مكين الدين أبن قومونيه أيام السلطان الصالح إسماعيل. توفي تحت العقوبة في أوائل صفر أو أواخر محرم. أنظر أبن تغري بردي، المنهل الصافي، جـ1، ص ص 180-

خوفاً من حضورهما اي [بدر الدين وجمال الكفاءة] الى مصر ونقلهم لِما هو عليه من ســوء الحــال،[1] والثانية ما كــان بينه وبين الأمــير طشــبغا الــدوادار (ت752هـ/1351م)[2] والــتي أدت الى نقله [إي طشبغا] إلى الشام[3] بمساعدة الأمـير شـيخون(ت 758هـ/1356م) [4] سنة 748هـ / 1347م أيام سلطنة الناصر حسن بن محمد (748-754هـ/1347-1353م) [5].

لقد باشر القاضي علاء الـدين ابن فضل الله العمـري بوظيفتـهِ بالديار المصرية مدة طويلة منذ ايام سلاطين المماليك البحرية بلغت احدى وثلاثين عاماً لا يضـاهيه في هـذه المدة سـوى العلامة القاضي كمال الدين محمد بن البازري (ت856هـ/1452م)، الذي كـان ينتمي

182.

1 (?) المقريزي، السلوك، جـ2، ص ص769-770؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص ص80-81.

2)) هو سيف الدين طشبغا بن عبد الله الناصري الدوادار من جملة الامراء المصريين في القاهرة، في اول دولة الناصر حسن استقر دوادارا سنة 748هـ/1347م واستمر إلى أن توفي. انظر المقريزي، السلوك، جـ2، ص 257؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص251.

3 (?) وقع بينه وبين علاء الدين ابن فضل الله بسبب ابن الفقاعي مشادة كلامية ادت الى دخول طشبغا الى الديوان، فسل سيفه على علاء الدين وشتمه فشق ذلك على الامراء فأخرج الى دمشق وأقام بها الى سنة 748هـ ثم أعيد الى مصر في ذي القعدة سنة 751هـ. انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ2، ص379.

4 (?) هو شيخون بن عبد الله الناصري مدبر الممالك الاسلامية بالديار المصرية من اصل تركي الجنس، جلبه خواجا عمر من بلاده وباعه للملك الناصر محمد وبعد موته ترقى إلى اتابك العساكر لمصر واول من سمي امير. أنظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ10، ص324؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ2، ص189؛ ابن العماد، شذرات الذهب، جـ6، ص ص183-184.

5 (5) على اثر هذه الحادثة عمد الدوادار طشبغا إلى اخذ اطواق كاتب السر ودخل هو وعلاء الدين على الامير شيخون، فأنكر شيخون على طشبغا عمله هذا ورسم باخراجه.

الى كُتّـاب سر السـلاطين البرجية، والـذي وليها لاحقـاً نحو ثلاثة وثلاثون عاماً[1].

ان وفـاة القاضي علاء الـدين علي ابن فضل الله العمـري لم تضع حـدا لاسـتمرارية ولاية أفـراد هـذه الاسـرة العمرية لكِتابة السر في الديار المصرية إذ تولى الدست مباشرة ولده بدر الدين محمد[2]، لمدة مقاربة جداً لوالـده علاء الـدين علي تصل الى ثمانية وعشـرين عاماً تمثل السنوات 769-796هـ/1367-1393م، عمل خلالها كاتبـاً للسر عند كل من السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسين (764-778هـ/1364-1376م)، مدة أربعة عشر سـنة من اعـوام سـلطنته، ثم أيـام ولـده الملك المنصـور علي(778-783هـ/1376-1371م)، وكـذلك شـغلها ايـام اخيه الملك الصـالح صـلاح الـدين حـاجي (783-784هـ/1381-1382م)، الـذي يعد آخر من تـولى السـلطنة من سـلاطين المماليك البحرية بمصر من مجمـوع عـددهم البـالغ سـبعة وعشرين سـلطاناً. وما ان خلع حـاجي من قبل الأمـير برقـوق، حـتى تهيأ الأمر في البلاد لقيـام فـرع جديد من المماليك متمثلاً بالمماليك البرجية، والتي باشر فيها أيضا كِتابة السر لاول سلاطينهم الذي تبـنى لقب الملك الظـاهر برقـوق (784-801هـ /1382-1398م) بين السنوات 786 - 792 هـ /1384 - 1389م، والسنوات793 - 796هـ

---

1 (?) هذا على قول ابن تغري بردي محتسباً سنين خدمته كقاضي في دمشق. النجوم الزاهرة، جـ11، ص102 و جـ16، ص14.

2)) هو عبد الله بن القاضي علاء الدين ابي الحسن بن القاضي محي الدين ابي المعالي ابن فضل الله العمري، ولد سنة 717هـ/1317م، وكان اسمراً شديد السمرة أمهُ سوداء، واتصف بلحية خفيفة عارف بوظيفتهِ ذا عقل متين ودهاء، وفي ترجمتهِ للصفدي: (يتصف بالعقل والاطراف والصمت وهي صفات مهمة في عمل كُتّابة السر والتعامل مع الاحداث في حضرة السلطان، بحيث خضع له الامراء والاكابر). للمزيد عن سيرته انظر الوافي بالوفيات، جـ5، ص ص211-212 وايضاً ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ3، ص533؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، جـ4، ص124؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ1، ص257.

/1390- 1393م، مدة استمرت اثنتا عشر سنة[1]. ومن هذا يفهم ان ولاية بـدر الـدين محمد ابن فضل الله بكِتابة السر بالـديار المصـرية، كان قد تقلدها ثلاثة مرات، خرجت عنه خلالها مـرتين، وهو ما تـزامن مع السـنين الأولى من سـلطنة المماليك البرجيـة، فكـان خروجه للاولى بأوحد الـــدين عبد الواحد (ت786هـ/1384م)، والثانية بعلاء الـدين علي الكـركي (ت793هـ/1390م)، مثلما سـيظهر من خلال تغطيتنا لعمل كُتّاب السر في ايام المماليك البرجية.

لقد أكتسب بـدر الـدين محمد ابن فضل الله العمـري خـبرة طويلة بإعمال ديوان الانشاء او ديـوان كـاتب السر بمصر في المـدة الطويلة الـتي عمل بها عنـدما كـان مشـاركاً لابيه علاء الـدين علي، وايضـاً عند تقلـدهِ شخصـياً رئاسة الـديوان وبلا شك ان هـذه المـدة الطويلة من العمـل، سـواء قبل وبعد تقلـده اهلتـهُ اداريـاً لاسـتيعاب مصـطلحات المكاتبـات والرسـائل الانشـائية للممالك الإسـلامية المعاصـرة لدولته، فكـان على دراية واسـعة بالتوقيعـات والكُتب الواردة على الأبواب السـلطانية من أهل تلك الممالك الإسـلامية وما تضمهُ من مصطلحات لمملكته ومناصبهم الإدارية ذات شان مهم في العمل الاداري - السـلطاني، فـإذا ما عـرف الكـاتب على قـول القلقشـندي: **(مصـطلحات المكاتبـات ومصـدر كل مكاتبة سلطانية سيظهر له ما يقف وراء مراسـلات حاكمهـا، هل هو صادق النوايا في مراسـلاتهِ او مجـرد إجـراءات مفتعلة من لدن الخصم، ولا يخفي ما في ذلك من الفائـدة والنفع في رقي وأرتفاع قدر الكاتب عند السـلطان...)**[1]فضـلاً عن

1 (?)
Weit:les secretaries de la chancellerie en,Egypte sous les mamlouk circa ssiens,paris- 1923, p. 102

1) يروي القلقشندي حادثة تدل على خبرة بدر الدين محمد بأمور المكاتبات والرسائل، حيث وردت رسالة في عهد الظاهر برقوق بيد رسول من عند طقتمش خان صاحب بلاد ازيك (778-799هـ/1376-1396م). وعندما قرأ

ان خبرتــهِ هــذه يقــول القلقشــندي ايضــاً: **(...هي الــتي اهلته للقيام بتعديل طريقة فهرسة التذاكر والـدفاتر المتضـمنة لمكاتبـات الـديوان وروداً او صـدوراً، وفي طريقة حفظها في الاراشـيف السـلطانية، على الـرغم من أيقـاف كُتّـاب السر اللاحقين العمل بها، وأبطالها بعد موتهِ)**[2]، ويلاحظ ان خبرته هذه ساعدت في أعادة تنظيم ديوان كاتب السر[3]، بعد الفتنة الـتي أطـاحت بالظـاهر برقـوق سـنة 791هــ / 1388م ونفيـهُ الى الكرك واعادة تنصيب الملك الصـالح المنصـور حـاجي (790-791هـ/ 1388-1388م) ســلطاناً للبلاد بــأمرة الاتابك يلبلغا الناصــري (ت 793هـ / 1390م) [1].

لقد اســتمر بــدر الــدين محمد يباشر كِتابة السر الى ان تــوفي بدمشق سنة 796هـ/1393م[2]، الـذي بموته زالت رئاسة كِتابة السر

كاتب السر بدر الدين مضمون الرسالة المبعوثة وجدها جارية على غير مصطلح مكاتبات او رسائل القانات في الورق والكِتابة، فأستفسره الرسول المذكور عن ذلك وناقشه في قضيته، فأضطر الرسول الى ان يقول الحقيقة وهي انه رسول عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان، فانكر عليه ذلك وانحطت رتبتهِ عند السلطان، بينما علت رتبة بدر الدين محمد عند السلطان الظاهر برقوق. انظر صبح الاعشى، جـ8، ص62 وانظر ايضاً زامباور، معجم الانساب والاسر الحاكمة، جـ2، ص366.

2) صبح الاعشى، جـ1، ص ص133-135، 139**.**

3) المقريزي، الخطط، جـ2، ص ص225-226**.**

1 (?) هو يلبغا بن عبد الله الناصري اليلبغاري توفي قتيلاً بقلعة حلب وهو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر برقوق التي خلع الملك الظاهر فيها من الملك وحبس بالكرك، وكان اصلهُ من أكابر مماليك يلبغا العمري استاذ برقوق، وتولى في ايام استاذه أمرة طبلخاناه، ثم صار أمير مائة ومقدم الف بالقاهرة في دولة الملك الاشرف شعبان. عنه انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ11، ص332 وما يليها وجـ12، ص ص126-128**.**

2 (?) توفي بدر الدين محمد في يوم الثلاثاء العشرين من شوال بدمشق صحبة السلطان الظاهر برقوق ودفن بتربتهم فيها عن سيرة حسنة اماماً فاضلاً في الانشاء والادب. انظر ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ9، ص 410؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص ص140-141؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ3، ص217؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص ص 394-395.

من بيت فضل الله العمـــــري، فهو آخر من وليه منهم بعد ان دامت لهم رئاسته خمسة وستين عاماً. وبعد سنة توفي اخــوه ونائبه وموقع دســتهِ حمــزة بن علي[1]،الــذي كــان آخر من بقي من بيت ابن فضل الله العمري.

يتضح من العـرض المـوجز لـتراجم كُتّـاب السر لدولة المماليك البحرية من بداية عمل الصـــاحب فخر الـــدين ابن لقمـــان الى آخر رئاسة القاضي بـــدر الـــدين محمد ابن فضل الله العمـــري،ان من الممكن ان نقول ان عصر المماليك البحرية شهد ارتقـاء عشـرة من كُتّـاب السر باشـروا رئاسة الـديوان لمـدة مائة وسـتة وثلاثين عامـاً كانوا قد خـدموا خلالها سـلاطين البحرية للمـدة ما بين 648-784هـ/ 1250-1382م،أثـنين منهم تولياها لمــدة قصــيرة لم تتعد الاشــهر، فمثلاً تولى تاج الدين بن الاثـير، وهو ثـالث كُتّـاب السر الـذين تولـوا الديوان لشهر واحد من الخدمـة، والثـاني شـرف الـدين بن الشـهاب محمـود الــذي نقل من كِتابة سر دمشق الى كِتابة سر مصر لغــرض معين وبعد بضعة اشهر أعُيد مرة اخرى الى ديوان دمشق.

ان اهم ما اتصف به العصر من خصائص بشان هـذه الولايـة،هو ان جميع رؤساء ديـوان كـاتب السر كـانوا من اعلام الادبـاء في مصر والشــام،وينحــدرون من عوائل عالية التخصص في الكِتابة وصــناعة الانشـــــاء، ويعــــود اليهم الفضل في وضع الأُسس الادبية لنمــــاذج المكاتبات والرسائل الديوانية التي أصبحت الأساس لمن يعمل كاتبـاً

---

1 (?) هو عز الدين ابو البقاء حمزة بن علي كان في حياة والده جندياً ولم يستقر في التوقيع بالدست الا بعهد اخيه بدر الدين ثم صار ينوب عنه بقيامه مع السلطان، وقد توفي في الشام بعد سنة واحدة من وفاة اخيه بدر الدين محمد سنة 797هـ/1394م. انظر ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، جـ1، ص 417 و جـ9، ص419؛ ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، جـ3، ص 562؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ12، ص141؛ ابن الصيرفي، نزهة النفوس، جـ1، ص417.

لـــديوان الانشــاء فيما بعــد، حــتى أن المشــهور منهم قد ألف كُتب وموسـوعات تضـمنت صـفحاتها قواعد وأصـول صـناعة الإنشـاء منها مصـــنف شـــهاب الـــدين احمد ابن فضل الله العمـــري (التعريف بالمصطلح الشريف)، الذي أصبح مصدرا لـديوان الإنشـاء وعمله من الكُتّاب الذين يريدون تعلم صناعتها.

ان التطـور الأدبي والعلمي الـذي شـهدته مصر خلال القـرنين السابع وبداية الثامن الهجريين / الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين تطلب حرص سلاطين المماليك البحرية في اختيار من يتـولى ديـوان السر ابتـــداءا بتمتع الكـــاتب بالكفـــاءة الأدبية، فضلا عن مهارتـــهِ السياسية والمقدرة الإدارية بشؤون السلطنة والمُلك، فلا عجب أنهم كـــانوا موضع التقـــدير من مرؤوســـيهم ســـلاطين المماليك البحرية وأمـرائهم من أصـحاب المـراتب في الدولة كما يمثلـون روح العصر الأدبية والعلمية بل الثقافية والإدارية.